امراء اسبانيا بعد عبد العزيز

أيوب بن حبيب:

بعد قتل عبد العزيز أقام الجنود مكانه شجاعا اشتهر فى حروب أفريقية وهو أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى (٧١٥ للميلاد) فكان من اعماله أن جعل قرطبة كرسى الامارة بدل اشبيلية وزار اسبانيا كلها ونشر لواء العدل بين أرجائها وعاقب القضاة الظالمين واخذ يرتق فتوق الحروب الماضية وبنى فوق آثار مدينة بلبليس BILBILIS مدينة سميت باسمه (قلعة أيوب) ولم تطل مدته فإن والى أفريقية محمد بن يزيد عزله بعد أن حكم ستة أشهر حين جاء أمر الخليفة سليمان بعزل اللخميين (قبيلة موسى).

الحر بن عبد الرحمن:

وولى مكان أيوب بن حبيب الحر بن عبد الرحمن الثقفى فى ذى الحجة سنة ٩٧ لهجرة فحكم سنتين وثمانية أشهر ـ يعزو إليه بعض المؤرخين فتح أقليم أربونه (نربونه NARBONNE) من بلاد الغال لكنّ المحققين منهم ينسبون ذلك إلى خلفه ويقولون «إنما كان يتأهب لفتح (سبتمانيا) إذ ثارت ثورة نصارى (استوريا) فى الشمال الشرقى فشغلته عن مأربه» كان قاسيا فى أحكامه يعاقب عقابًا صارما على أقل الهفوات فكثرت شكاوى الأهلين منه إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز فعزله وأقام مقامه.

السمح بن مالك الخولانى:

ولى سنة ١٠٠ للهجرة (٧١٨ للميلاد) وأول أمر عنى به أن نظم ادارة البلاد وزار أقاليم اسبانيا وتفقد أحوالها وأحصى الأهلين واملاكهم فى سجل أرسله إلى الخليفة ووصف له مدائن الاندلس وأنهارها وثغورها وتجارتها ثم تأهب لفتح سبتمانيا فجاوز جبال البرت نحو الشمال الشرقى واستولى على اربونة (نربونة)

بعد حصار ٢٨ يوما فخضعت له المدن التابعة لها ثم أوغل فى الدخول فى أرض الفرنج حيث امتد الفزع إلى ما فوق نهر الرون واستولى على مدائن كثيرة وعاد إلى نربونه مثقلا بالغنائم ومعه عدد عظيم من السبى ثم أعاد الكرة مسرعا وصعد إلى (وادى اود AUDE) وحاصر مدينة طلوشه وكادت المدينة أن تسلم إليه قيادها لولا أن أنجدها (الدوق اودس LE DUC EUDES) بجيش جرّار يسد غباره عنان السماء فلما رأى المسلمون كثرة عدد الاعداء هالهم الأمر فشجعهم السمح وقال لهم «لا تهولنكم كثرة العدد فإن الله معنا».

اصطدم الجيشان كأنهما جبلان وحمى الوطيس واحتدمت نار القتال وسالت دماء الابطال على ظبات السيوف حتى خجل منها وجه الصحصحان واستمر الحال طويلا دون أن يظفر أحد الفريقين بالآخر والسمح يصول على صفوف العدو كالاسد الغضبان فيبدّد عقد نظامها والدم يسيل من سيفه على ذراعيه إلى جسمه وكانت أعماله الخارقة للعادة تشد عزائم جنده ولكن قلّ أن ينجو قائد يقاوم بشخصه جيشا فقد أصابه عدة طعنات خرّ منها صريعا فعندئذ خارت عزائم أصحابه ثم ثابت إليهم شجاعتهم واجتهدوا فى صد هجمات الاعداء ولكنهم تكاثروا عليهم حتى أفنوا ثلثيهم ولكثرة قتلى المسلمين أمام طلوشه سموا مكان الملحمة بلاط الشهداء وتاريخ هذه الواقعة ٩ ذى القعدة سنة ١٠٢ (١١ مايو سنة ٧٢١).

ثم اجتمع الباقون من الجيش تحت قيادة عبد الرحمن الغافقى قائد الشاطئ الشرقى من الجزيرة فإنه امتاز فى هذه المعركة عن أقرانه بالشجاعة والفتك بالعدو فارتد بهم إلى اربونة سالمين من جنود أودس التى كانت اقتفت آثارهم.

لما بلغ عنبسه الذى أقامه السمح مقامه فى اداره الحكومة عند توجهه للغزو هزيمة الجند فى طلوشه أسرع فى تجهيز فرقة وارسلها لتنجد اربونه فساعدت عبد الرحمن على اطفاء نار الثائرين من نصارى القوطيين ومن نصارى سكان جبال البرانس فى مدينة ياقة YACCA.

عبد الرحمن الغافقى:

عند وصول المنهزمين إلى اربونه انتخب المسلمون عبد الرحمن اميرا على اسبانيا لما عهدوا فيه من السماحة والكرم والنبل والشهامة والشجاعة ومحبة الجند إياه وقد رضيت اسبانيا الشرقية عن هذا الانتخاب ولكن عنبسة وضع عقبات فى طريقه فبلّغ الامر إلى ولاية أفريقية لكنها أقرت انتخاب عبد الرحمن.

فى هذه الاثناء مات الخليفة يزيد بن عبد الملك فى دمشق فى ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ للهجرة (٢٧ يونيو سنة ٧٢٤) وخلفه أخوه هشام.

اغضبت حكومة عبد الرحمن فى اسبانيا بعض الرؤساء ولم ييأس عنبسه من نيل الامارة فكتبوا إلى والى أفريقية بشر بن حنظلة بن صفوان يتذمرون من امارة عبد الرحمن: ما بخسوه قدره فيما كتبوه ولكن رموه بالاهمال فى ادارة البلاد وبالتبذير فى الأعطية التى لا تلائم (على زعمهم) أخلاق الزهد والقناعة فى المسلمين.

عنبسة بن سحيم:

أدى ذلك كله إلى عزل عبد الرحمن واستعاضته بعنبسة بن سحيم وهو جدير بأن يخلف سلفه لذكائه واستعداده ـ ما أغضب عبد الرحمن أن عزل بل رجع هادئا كأن لم يكن فى الأمر شىء إلى ادارة اقليم الشرق من اسبانيا ومن كرم أخلاقه أن هنأ الأمير الجديد بعبارات تشف عن اخلاص وتوطد دعائم الوفاق.

توجهت عزيمة عنبسة إلى أن يتمم المقصد الذى فتح بابه السمح فبعث البعوث إلى سبتمانيا فاجتهدوا فى أن يستردوا المواقع التى اضطر المسلمون إلى الجلاء عنها فلم يستطيعوا إلا أنهم حافظوا على نربونه التى كانت مركز أعمالهم الحربية فرأس بنفسه تجريدة قوية سار بها حتى هجم على قرقشونه CARCAS-SONNE وفتحها عنوة وكانت لم تؤخذ قبل ثم اتجه نحو الشرق فخضعت له البلاد التى بين قرقشونه ونيموسة أو (نيمة) NIMES صلحا وكان يأخذ من أهلها

رهائن للبقاء على الطاعة ويترك لهم حرية الدين ـ ثم توجه نحو الشمال حتى بلغ وادى الرون RHONE[١] وأخذ مدينة ليون ثم توغل فى الدخول مقتفيا مجرى السون SAONE إلى أن بلغ برجنديا BURGUNDIE وأخذ أوتون AUTUN وعاد مثقلا بالغنائم لكن هجم عليه أعداؤه فاصابوه بجروح أودت بحياته بالقرب من نربونه فى شهر شعبان سنة ١٠٧ للهجرة (آخر سنة ٧٢ للميلاد) قلّد عنبسة قبل موته عذرة بن عبد الله[٢]: امرة الجيش ولكنّ الأهلين استدعوا من والى أفريقية بشر بن صفوان أميرا آخر فأنفذ إليهم يحيى بن سلمة الكلبى فى شوال سنة ١٠٧ وكان شهمًا شجاعًا عادلاً لكن قسوته هيجت عليه شيوخ القبائل فطلبوا من عبيدة بن عبد الرحمن السلمى استرداد يحيى فأجاب طلبهم وأرسل إليهم حذيفة بن الأحوص القيسى ولكن هذا كان غير كفء فلم يحفظ مركزه إلا أشهرا وعزل وخلفه عثمان بن أبى نسعة فلم يستقر فى الامارة حتى كثر شاكوه فخلع وولى الخليفة بدله الهيثم بن عدى الكلابى فى المحرم سنة ١١١ (ابريل سنة ٧٢٩) فقسا على الأهلين وظلمهم فمقتوه وشكوه إلى الخليفة فأرسل هذا محمد بن عبد الله[٣]: لينظر فى ظلاماتهم ويعزل الهيثم إذا وجده مجرما ففعل وعزله وبقى فى اسبانيا يدير شئونها بالحكمة والسداد نحو شهرين.

عبد الرحمن الغافقى (ولايته الثانية):

ثم ألقى مقاليد الحكومة إلى عبد الرحمن الغافقى بأمر الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١١٣ للهجرة فسرّت عودة هذا الأمير الجند والاهلين لما عهدوه فيه من الحكم بين الناس بالعدل لكن البربر نظروا ذلك بعين الحسد.

لما تقلد عبد الرحمن ولاية اسبانيا ثانية زار أقاليمها ووطّد دعائم النظام فى انحائها وجعل السكان سواء فى الحقوق والمزايا وان اختلفوا فى الدين ثم شرع

(١) فى التواريخ العربية يسمون وادى الرون (وادى رودونة) ومدينة ليون (مدينة لورون).
(٢) بعض المؤرخين لا يعدون عذرة من امراء الأندلس.
(٣) بعض المؤرخين يسقط محمد بن عبد الله من امراء الأندلس وبعضهم يثبته.

يتأهب لفتح بلاد الغال GAULE أو غاليا GALLIA التى خلف جبال البرانس من الشمال وكانت تعرف بالأرض الكبيرة وهى فرنسا الآن.

كانت تقسم هذه البلاد حين قصدها عبد الرحمن إلى أقاليم: إقليم سبتمانيا فى الجنوب الشرقى وقصبته نربونه (أربونه) وكان قد دخل فى حيازة المسلمين من جبال البرت إلى نهر الرون، وإقليم اكيتانه AQUITAINE على شمال وغرب سبتمانيا وفى جنوبه جبال البرانس وشماله نهر اللوار LOIRE وشرقه نهر الرون وغربه البحر المحيط وقصبته طلوشه يحكمه أمير من الفرنك أو الفرنج يسمى الدوق أودس وإقليم نوستريا NEUSTRIE فى شمال نهر اللوار من الغرب، وإقليم أوسترازيا AUSTRASIE فى شمال هذا النهر من الشرق وكان يحكمه أمير من الفرنج أيضا يسمى (شارل) أو قارله أو قلدوس CHARLES أودس وشارل كلاهما كان يخشى الآخر ويحذر بطشه والغاليون يكرهونهما معا لأنهما من الفرنج الذين جاءوا من جرمانيا وتغلبوا على بلادهم.

دعا عبد الرحمن المسلمين من اليمن والشام ومصر وأفريقية إلى غزو الفرنج والتغلب على غاليا فلبى دعوته أقوام لا يحصون عددا فعبى منهم جيشًا جرارا وقصد أن يستولى أولا على اكيتانه ثم نوستريا فإن من ملك بردو وبواتيه وطورس وباريس فمن السهل عليه أن يدفع الاوسترازيين إلى اوطانهم القديمة خلف نهر الرين RHIN فلو تم ذلك لعبد الرحمن لأصبح أهل فرنسا وان شئت قلت أهل اوروبا من المسلمين.

بينما عبد الرحمن على قدم الرحيل إذ بلغه أن أوامره غير مطاعة لدى محافظ التخوم الشرقية، هذا المحافظ هو عثمان بن أبى نسعة ـ كان بربريا وسبق أن تولى امارة الجزيرة وكانت نفسه توّاقة إلى أن تعود إليه الامارة فرأى بعين السخط والكراهة ارتقاء عبد الرحمن إلى هذا المنصب الذى كان يبتغيه لنفسه وكان له

نفوذ قوى فى الأقاليم التى كان يحكمها وكان من بينها سردانية CERDAGNE[١] وجميع ما وراء جبال البرانس إلى وادى أودس فإنه أسكن فى هذه الأقاليم عدة قبائل من البربر وكوّن له فيها حزبا قويا ـ وفوق ذلك عاهد[٢] دوق اكيتانه الذى كان يهدد بلاده عبد الرحمن ولتوطيد دعائم هذه المعاهدة تزوج عثمان ابنة الدوق المسماة لمپاچه LAMPAGIE – اضطرَّ الدوق إلى هذه المعاهدة أن قارله كان يهدده من الشمال وعبد الرحمن من الجنوب ومن أجل هذه المعاهدة عزم ابن أبى نسعة أن يقاوم عبد الرحمن ويصدّه عن اكيتانة ولكن هذا ما أمهله حتى يتأهب للمقاومة بل أسرع وأرسل إليه تجريدة قوية تحت امرة ابن زيان وأمره أن يجىء به حيا أو ميتا فباغته فى عاصمته المسماة مدينة الباب قبل أن يستعد للدفاع فأسرع إلى الفرار هو وزوجته وبعض خدمه فاقتفى ابن زيان بدون ريث آثاره فى مضايق الجبال حتى أدركه، قيل: إنه ألقى بنفسه فى هاوية لئلا يقع حيًا فى أيدى اعدائه وقيل: إنه قاتلهم حتى قتلوه طعنًا بالرماح وقطعوا رأسه وقبضوا على لمپاچه وأرسلوها هى والرأس إلى الأمير عبد الرحمن فاطمأن اذن على داخل الجزيرة واتجه بجيوشه الجرارة تخفق فوق رءوسهم الأعلام البيض[٣] إلى اقليم ياقه واجتازوا جبال البرانس وأغاروا على (نوفمپوپولانى NOVEMPOPULANI) وأوغلوا فى الدخول فى اكيتانه حتى وصلوا إلى مدينة بوردو فاجتهدت فى أن تقاومهم فما افلحت بل سقطعت فى أيديهم ونهبوها.

(١) سردانية بلاد على سفحى جبال البرانس قسم منها فى اسبانيا والآخر فى فرنسا.

(٢) فى تاريخ رومى وكندى أن الذى عاهد اودس هو عثمان بن أبى نسعة كما ذكرنا وقال بعض معاصرينا «أنه المنيذر فإن أيزيدور سماه MUNUZA وأن هذا تحريف منيذر والمنيذر أفريقى وأبو نسعة لخمى أى من العرب» من المشكل أن جعل رومى عثمان بن أبى نسعة جهنيا فى صفحة ٩٥ من الجزء الثالث من تاريخه (أى من قبيلة جهينة إحدى قبائل العرب) وبربريا فى صفحة ٩٩ أى من بربر أفريقية الشمالية) وجعله ذلك البعض لخميا وفى نفح الطيب صفحة ٦٩٦ إنه خثعمى.

(٣) بنو أمية كانوا يتخذون الأعلام البيض وبنو العباس الأعلام السود والفاطميون الأعلام الخضر.

إلى هنا كانت الشئون ميسرة للعرب وحظهم قائما لأنهم كانوا ينفرون إلى كفاح العدو خفافا لكن بعد ذلك ابتدأ قيام عقبات فى سبيلهم فإن اثقالهم من الامتعة والغنائم الواسعة جعلتهم يثاقلون عن السعى فى اتمام المارب الذى وجهوا إليه فعبروا بمشقة نهر جارون ثم نهر دوردونيا حتى تقابلوا أخيرا مع الدوق اودس وقد جاءهم بجيش عرموم فى مكان يسمى (چير ونده GIRONDE) فاقتتل الفريقان ودارت الدائرة على الدوق فقتل من جيشه كثير وانهزم الباقون وخلصت اكيتانة للمسلمين فاستولوا على مدائنها وقراها وغنموا غنائم لا تحصى.

يقال: إنه كان فى نصيب كل جندى من الذهب والزمرد والسوسن والياقوت ما كاد ينوء بحمله خلا طعامه وعدته التى يقاتل بها.

ثم ساروا إلى الأمام بدون أن يعارضهم معارض حتى ظهروا أمام مدينة (بواتيه) فاخذت فى مقاومتهم لكن أحد ارباضها كان غير حصين فاخذوه واحرقوه وكان فيه كنيسة القديس (هيلار HILAIRE) فصارت رمادا تذروه الرياح ومع هذا ثبتت المدينة على المقاومة.

عندئذ استولى على عبد الرحمن التردد بين أن يثبت على حصارها أو أن يسير إلى مدينة طورس حيث توجد الاعلاق النفيسة والاموال الطائلة فى دير القديس (مرتين MARTINE) رسول الغاليين لكن لما بلغه أن أودس اضطر بعد هزيمة بوردو إلى أن يطلب من عدوه قارله المساعدة على صد العرب وإنهما اتحدا بعد أن استحكم النفور بينهما زمنا وجاءا بجيش ذى بأس شديد كثير العَدَد والعُدَد وأن هذا الجيش عبر نهر اللوار زال تردده ورحل عن بواتيه.

تقابل العرب وجموع الجرمان عند نهر اللوار بالقرب من طورس فى اكتوبر سنة ٧٣٢ ب م ودارت رحى الحرب بين الفريقين وكانت معركة هائلة تعد من المعارك التى لها شهرة فى تاريخ العالم بأسره استمر القتال فيها يومين بدون أن يظهر أحد الجيشين على الآخر ولكن الأمير عبد الرحمن قتل فى حومة الوغى وفى

ليلة اليوم الثالث انسل العرب سرا مع أنهم لم يقهروا راغبين أن يحفظوا ما بأيديهم من الغنائم التى جمعوها وأن لا يعرضوها لخطر هذه الحرب الشعواء ورؤساء الفرق كانوا يتوقعون عصيان جنودهم واتباعهم.

هذه الواقعة وضعت حدا لامتداد الإسلام فى اوروبا الغربية، يظهر أن جيش عبد الرحمن لم يسلك طريق السياسة التى اتبعها طارق وموسى وابنه عبد العزيز وغيرهم ممن حذا حذوهم فى فتح البلاد فإن هؤلاء كانوا إذا رأوا الطاعة من الأهلين أمنوهم على أرواحهم وأموالهم واكتفوا منهم بالجزى ولا يمسون دينهم ولا قضاءهم لكن يضعون دساتير تدور عليها الشئون الأهلية تحت سلطان قادة من المسلمين فبهذا كان الأهلون يخلدون إلى حكمهم.

كان يمكن عبد الرحمن أن يتخذ معاهدة عثمان واودس وقيام الشحناء بين هذا وقارله وبغض الغاليين لهما لأنهم من الجرمان ذرائع للاستيلاء على اكيتانه وأوسترازيا لكنه اقترف قتل عثمان وحزبُه من البربر قوىٌّ ساكن فى الشرق والشمال الشرقى وكان لا يعدم وسيلة إلى استمالته وتوجيهه إلى مشاركة اودس فى قتال خصمه قارله فإذا قهراه زاد نفوذ العرب فى أرض الغال وعرفوا دخائلها واستطلعوا احوالها وعندئذ تنضج البلاد لتؤكل سائغة.

بعد أن عبرت جنود عبد الرحمن المختلفة الطوائف جبال البرانس يؤخذ من سير حوادثهم أنهم ما وجهوا عزائمهم إلا إلى النهب والسلب والفتك بالأرواح وتخريب البلاد واحراقها وتركها يَبَابًا لا إلى فتحها وادخالها فى طاعة المسلمين وحكمهم وإقامة حاميات تحفظ الأمن فى أرجائها وتولية ولاة يديرون شئونها بالقسطاس المستقيم كما كان الحال فى فتح اسبانيا.

لو كان هذا لكان من الميسور للجنود أن يودعوا أنصبتهم من غنائم الحرب فى البلاد المفتوحة لا أنهم ينأون بحملها فى ميادين القتال فحرصهم عليها كان سبب فضلهم وضياعها، ومما ادّى أيضا إلى فشل جيش عبد الرحمن وقوع النفور

بين العرب والبربر الذين هم من حزب ابن أبى نسعة المقتول وكذا تتابع القتال وقتل الرجال بدون مدد يسد الخلل والتمادى فى الغزو بدون توطيد دعائم السلطان والحكم والأمن فيما تركوه خلف ظهورهم من البلاد التى اغاروا عليها ونقص علاف الخيل الذى أدى إلى فيظ كثير منها.

لما بلغ والى أفريقية موت عبد الرحمن ولّى عبد الملك بن قطن الفهرى إمارة الجيش فى اسبانيا وامَره الخليفة واقره أن يأخذ بالثأر من الافرنج فوعظ المسلمين وحرّضهم على نجدة عمالاتهم المهددة خلف جبال الأبواب وارسل عدة تجريدات تحت امرة قوّاد ماهرين وتخلف هو فى قرطبة لادارة البلاد التى كانت اختلت ولكن جاءه أمر الخليفة بأن يقوم ويترك كرسى الإمارة وحارب الافرنج بنفسه فلما وصل إلى مضايق السفح الشمالى وقد حان فصل الامطار بَغَتَه نصارى الجبال بالهجوم وكانوا يترقبونه فى الممَرّ فاضطر إلى التقهقر وتبدد شمل جيشه ـ هذه الهزيمة اضاعت ثقة قبائل اسبانيا فيه وعزله والى أفريقية فى الحال وولّى مكانه أخاه عقبة بن الحجاج لما أظهره فى محاربة الثائرين من بربر أفريقية من القدرة والشجاعة.

بمجرد وصوله إلى الاندلس عزل القواد المغلوبين والعمال الذين استأثروا بمال الحكومة وأكلوا أموال الأهلين ظلما ثم عنى بادارة البلاد فأقام فى المدن والقرى قضاة وفى الأقاليم ولاة وعيّن مع كل والى اقليم شرطة أى جيشا مسلحًا يحفظ الأمن فى البلاد ويبقى ثابتًا فيها وكان الشرطيون يسمون كشّافا لأنه كان من عملهم كشف الاشرار أى الوقوف عليهم وأمر بإحصاء عدد الأهلين ووضع نظاما عادلا للخراج واشتهر عصره بإنشاء مساجد كثيرة بجوانبها مدارس فإنه كان من عادة العرب أن يبنوا بجانب كل مسجد مدرسة وكان لهذه المساجد خطباء ومدرسون يعلمون الناس الدين.

وعُرف عقبة بين الناس بالنزاهة والاستقامة والعدل والتمسك الشديد

بالمحافظة على الحق وبأنه صعب المراس فيه فلا يثنيه عنه ثان، لما ظهر له براءة عبد الملك مما اتهم به أعاده إلى المناصب العامة فقلده ولاية التخوم الشمالية أى (نفارة) و (ارجونه) وجعل مقره (پنپلونه).

بعد أن تم الإصلاح فى اسبانيا جاء كتاب من الخليفة هشام يأمر فيه عقبة بغزو الفرنجة (بلاد الغال) فتهيأ لأن يجتاز جبال البرانس فوصل إلى سرقسطة وعزم على أن يجعلها مركز أعماله وأمر والى سبتمانيا يوسف الفهرى أن يهاجم شواطئ نهر الرون اثناء ما يغير هو على اكيتانة لكن لم تنفذ هذه العزيمة فإن أخاه والى أفريقية دعاه إليها لاطفاء ثورة البربر التى أبادت قوة الخليفة هناك فعاد إلى قرطبة ثم اجتاز النهر وأسرع إلى أفريقية ومعه فرقة من الفرسان (سنة ١١٩ للهجرة ـ ٧٣٧ للميلاد) وعند وصوله إلى طنجة اتحد هو والقواد وساروا نحو البربر فبددوا شملهم وسكنت الفتنة لكن عقبة اضطر إلى البقاء فى افريقية زمنا ولم يعد إلى اسبانيا فورا خشية أن يتجدد عصيان البربر ـ بلغه أن قارلة حاصر نربونه فأرسل جيشا فى السفن تحت امرة عمر بن خالد لانقاذها فلما وصلوا إلى ساحل سبتمانيا أوقع بهم قارلة الذى كان مترقبًا وصولهم ثم إنه ملّ من طول زمن الحصار فترك نربونه ورجع إلى نوستريا والذى يظهر أن المدد هو الذى أنقذ المدينة واضطر قارلة إلى العودة.

عاد عقبة إلى اسبانيا فوجدها مختلة النظام وعمالها على غير وئام إلا أنه رأى عبد الملك ساعيا فى خير رعيته موطّدا دعائم الأمن فى أقاليم الشمال محافظا على التخوم فكتب إليه يشكره على حميّته وجليل أعماله وأرسل إليه مددا بين فرسان ومشاة.

فى سنة ١٢٢ للهجرة (٧٤٠ للميلاد) مرض عقبة ومات إثر مرضه[1] فخلفه

(١) وفى رواية أن عقبة حكم خمس سنين يصحبه المجد إلى أن ثار عليه عبد الملك وخلعه وقتله أو طرده من اسبانيا ـ وقيل: إن الشعب الاسبانى هو الذى ثار على عقبة فى صفر سنة ١٢٣ (ديسمبر سنة ٧٤٠) فى السنة السابعة من حكمه وأقام مقامه عبد الملك وأنه مات فى الشهر الذى خلع فيه فى قرقشونة.

فى الإمارة عبد الملك فكانت ولايته الثانية وكان وقتئذ فى سرقسطة فأقام ابنه أمية حاكما فى طليطله وعبد الرحمن بن عقبة عاملا على قرطبة.

بعد موت عقبة ثارت قبائل البربر فى أفريقية مجتمعة تحت لواء خالد الزناتى فحاربهم الأمير كلثوم بن عياض فهزموا جيشه وقتلوه وقيل جرحوه وفرّ إلى سبتة.

لما وصل خبر هذه الهزيمة إلى الخليفة هشام قلّد حنظلة بن صفوان والى مصر ولاية أفريقية وأمره بكبح جماح البربر فأسرع إلى المغرب يقود جيشا عرمرما فوصل فى رجب سنة ١٢٥ للهجرة (مايو سنة ٧٤٣ للميلاد).

يؤخذ من (تاريخ رومى) «أن الجيش كان مركبا من أمم مختلفة فكان فيه العرب والشاميون تحت قيادة ثعلبة بن سلامة، والمصريون وسكان برقة تحت امرة بلج بن بشر، وسكان المغرب الذين هم من ذرارى فاتحى البلاد تحت قيادة حنظلة نفسه، وأنه لما التحم الفريقان وحمى الوطيس واشتدت سورة الغيظ اضطر فرسان المصريين والشاميين إلى أن يتركوا ميدان القتال تسيل فيه الدماء وتغطيه اشلاء القتلى إلى المغاربة ذوى الصبر والجلد ولجأوا إلى الفرار ولاذوا بسبتة ومعهم القائدان بلج وثعلبة وقيل: إن بلجا لاذ بسبتة مع عمه كلثوم والى أفريقية قبل حنظله بن صفوان.

اقرّ الخليفة هشام عبد الملك بن قطن فى امارة اسبانيا ١٢٥ للهجرة[١].

قال رومى المؤرخ: «لما بلغ عبد الملك وهو فى سرقسطة التجاء جنود المصريين والشاميين إلى سبتة تحت قيادة بلج وثعلبة خشى أن يحدثوا قلاقل فى اسبانيا فمنعهم مَنّ الدخول فيها[٢] لكن نشأ عن هذا المنع أن حنق أعداء عبد الملك عليه ورثوا لهؤلاء الجنود البائسين وعزموا على أن يستقبلوهم فى اسبانيا

(١) فى السادس عشر من ربيع الثانى من هذه السنة مات الخليفة هشام فى الرصافة بعد أن حكم تسع عشرة وسبعة أشهر وأحد عشر يوما وكان عمره ٥٣ سنة.

(٢) قال كندى المؤرخ (إن عبد الملك أسف من جهة على هزيمتهم لكنه خشى من أخرى أن يحدثوا قلاقل فى اسبانيا فكتب إليهم أن لا يتجاوزوا الشاطئ وأن يعودوا سريعا إلى أفريقية).

رغما عنه وعلى أن يخلعوه فاجتاز بشر وثعلبة بمعونتهم المجاز فى أواسط سنة ١٢٥ (٧٤٣).

لما بلغ بربر أسبانيا خبر انتصار اخوانهم فى أفريقية ملئوا فرحا وحماسة وهبّوا لأن يلقوا نير حكم العرب عن كاهلهم فثاروا فى ثلاث نقط: فرقة منهم اتجهت إلى طليطلة التى كان حاكمها أميّة بن عبد الملك، وأخرى حملت على قرطبة وعاملها عبد الرحمن بن عقبة، وثالثها اتجهت نحو الشاطئ ليمنعوا جنود بلج وثعلبة من العبور إلى الأندلس فخاب أمل البربر فى النقط الثلاث: فإن فرقة طليطلة قاومها أمية وفرّق شملها، وفرقة قرطبة دفعها عبد الرحمن، والفرقة الثالثة انقضت عليها جنود سبتة ومن انضموا إليهم من العرب واثخنوا فيها ثم اتجهوا إلى قرطبة ناقمين على عبد الملك لرفضه قبولهم فى أسبانيا.

حينئذ قرر أهل قرطبة أن يسلموا أميرهم إمّا لأنهم يكرهونه وإمّا خشية من قساوة بلج وحزبه فربطوه فى قنطرة بين خنزير وكلب إلى أن جاء بلج وقطع رأسه وعلقوه على باب المدينة سنة ١٢٥ (٧٤٣) اهـ.

صرح رومى فى عبارته هذه بأن فرقة من البربر اتجهت نحو مجاز طارق لتمنع جنود بلج وثعلبة من اجتيازه وبأن هؤلاء الجنود قاتلوا البربر بعد أن عبروا المجاز لكن لم يجئ فى تاريخ كندى (CONDE) أن فرقة من ثائرى البربر اتجهت لصد العرب القادمين بل ذكر «أن المنهزمين من طليطلة وقرطبة انضموا إلى جيش بلج وثعلبه فاجتمعت لهما بهم قوة كثيرة العدد فحاربا جنود عبد الملك وهم من العرب حتى إن هذا الأمير كتب إليهما وهو فى قرطبة أنه ليس من الحكمة ضم جنودهما إلى ثائرى الأندلس وأنه كان الاجدر بهم أن ينضموا إلى جيش العرب للاتحاد فى الاصل واللغة وأن يعضّد بعضهم البعض بدل أن يجعلوا بربر المغرب والاندلس يجنون الثمرات من وراء شقاقهم واهلاك بعضهم بعضًا وذكرهم بأن الاندلسيين ما خضعوا إلا بالسلاح ويخشى أن يهبّوا لأخذ الثأر

ويستردوا حريتهم وأشار على بلج وثعلبة أن يحتلا جزيرة شلطيش SALTIS إلى أن يعود النظام وتجرى المياه فى مجاريها ويرجعا إلى أفريقية فإن فى هذا سلامتهما.

وأن بلجا وثعلبة لم يعيرا هذه المعقولات آذانًا واعية بل اتخذاها دليلا على ضعف وخوف عبد الملك.

وأن أهل قرطبة هلعوا من زوبعة الثورة وذعروا من قساوة البربر فأرادوا أن يخمدوا نار هيجان الثائرين بتسليم أميرهم عبد الملك فربطوا هذا الرجل الصالح وكان مجروحا جرحا بليغًا... إلخ».

عندئذ أعلنت المدينة والجند امارة بلج بن بشر على اسبانيا ولكن ثعلبة بن سلامة الذى جاء معه من أفريقية لم يعترف له بهذه الإمارة قائلا: «إن تولية ولاة اسبانيا من حقوق الخليفة ووالى أفريقية لا من حقوق الأهلين والجند» وانضم لرأيه أغلب قبائل اسبانيا ثم توجه هو وحزبه إلى ماردة.

فى هذا الحين كان يتنازع سلطان الجزيرة ثلاث قوى: بلج فى قرطبة وثعلبة فى ماردة وقطن وأميّة ابنا عبد الملك فى طليطلة وانضم إليهما عبد الرحمن بن عقبة وكان فارسًا مغواراً وتبعهم العرب الحقيقيون وبقايا البربر فجمعوا جنودا كثيرة وأقبلوا نحو بلج وكان لم يبق معه إلا اثنا عشر ألفا فتقابل الجيشان فى سهل قلعة الرحبة CALATRAVA وجرت دماء الفريقين على الصحصحان، فى اثناء القتال ألقى بلج بفرسه وسط المعركة ونادى أين ابن عقبة فأسرع إليه هذا مجيبا (هأنذا) وهجم أحدهما على الآخر ولكن كانت طعنة ابن عقبة سابقة فخرّ خصمه ابن بشر صريعًا وانهزم اتباعه الشاميون.

فى هذه الاثناء كانت رحى الحرب دائرة بين بربر أفريقية وحنظلة بن صفوان واليها فخذلهم أخيرا وأطفأ نار ثورتهم وعاد غانما منصورا وثاب أهل المغرب جميعا إلى الطاعة.

بلغ حنظلة حينئذ ما هو حاصل فى اسبانيا من المعارك الدموية والاختلال

العام فى انحائها فولّى عليها واليا جديدا رأى فيه أن يرتق فتوقها وهو أبو الخطار.

قبل وصوله إلى اسبانيا صار (ثعلبة بن سلامة) حاكم ماردة وقد فتحت له قرطبة أبوابها بهد أن أسر ألف رجل من البربر وجرّدهم من السلاح وشدّ وثاقهم وأمر بضرب أعناقهم يوم الجمعة على مرأى من الأمّة.

كاد أمره هذا ينفذ لولا أن رأى الناس مجيء أبى الخطّار فى مركب حافل ففكوا اسرهم، لم يسع ثعلبة إلا الخضوع إلى الوالى الجديد وهذا أرسله إلى أفريقية ليسأله واليها عما جناه.

بعد هذا توجّه أبو الخطار من قرطبة إلى طليطلة حيث كان فيها عبد الرحمن ابن حبيب موالى ومحازب ثعلبة فطرده منها ثم جاءه محازبو أبناء قطن وحيّوه بالسلام باعتبار أنه أميرهم الشرعى ثم أخذ يوطّد دعائم النظام فى الجزيرة بالسياسة والحزم أكثر من القوة إلى أن دخلت كلها فى دائرة سلطانه واعترف أهلوها جميعا له بالامارة العامة، كان شيخا شهما حنكته التجارب فى الحروب ذا حميّة فى العمل الصالح لما رأى أن الحروب الأهلية الأخيرة أفضت إلى أن أصبح كثير من القبائل بدون مأوى وأنه جاء أيضا لاستيطان اسبانيا عدد عظيم من اليمن والشام ومصر والمغرب، أحصى عدد القبائل وحصر الاصقاع الخالية وأسكن كل قبيلة صُقعا فأسكن اليمانيين والشاميين المدن والمصريين وبعض عرب الجزيرة الاقدمين الاندلس والساحل والبربر أقاليم المغرب والشمال[1] ومن هذا الحين زالت ولاية تدمير التى عاهده عليها عبد العزيز.

(١) قال ابن خلدون: «كان أبو الخطار شجاعا كريما ذا رأى وحزم وكثر أهل الشام عنده ولم تحملهم قرطبة ففرقهم فى البلاد وانزل أهل دمشق البيرة لشبهها بها وسماها دمشق وأنزل أهل حمص اشبيلية وسماها حمص لشبهها بها وأهل قنسرين جيان وسماها قنسرين وأهل الأردن رية وهى مالقة وسماها الاردن وأهل فلسطين شدونة وهى شريش وسماها فلسطين وأهل مصر تدمير وسماها مصر.

لم يدم استتباب الأمن فى الجزيرة زمنا طويلا فإن أبا الخطار عند قسمة الأرض بين القبائل مال إلى جانب اليمانيين فحنق من ذلك المضريون وأيضا لم يرض أن يولّى الصميل بن حاتم العراقى[1] حكومة سرقسطة مع أن بلج بن بشر وعده بها إذ جاء فى جنده إلى اسبانيا وكان ذا دُرْبَة على الحروب وقيادة الجنود واتصل به ثوابة بن سلامة أخو ثعلبة المنفى إلى أفريقية فألّبا على الوالى اعداءه وثاروا جميعا إلى أن التقوا بجيش أبى الخطار بالقرب من شدونة على وادى لكه فهزموه وأخذوه أسيرا (فى رجب سنة ١٢٧ ـ ابريل سنة ٧٤٥) وحبسوه فى قلعة فى قرطبة.

عندئذ أعلن الصميل وحزبه امارة (ثوابة بن سلامة) على اسبانيا.

فكّر أمية بن عبد الملك وعبد الرحمن بن عقبة اللذان كان لهما قيادة الشمال الشرقى من الجزيرة فى إعادة الامارة إلى أبى الخطار فارسلا جاسوسا إلى قرطبة سرّا فهجم ومعه ثلاثون فارسا من شجعان المدينة على أحراس السجن فأطلقوا سبيل المسجون وفى اليوم التالى علم أهل المدينة بما جرى فقاموا لنصرته واعتقل شبانهم السلاح من أجله ومن فرّوا من القلعة أخبروا الصميل فجاء وحاصر قرطبة فأخذ الأهلون فى الدفاع عن حوزتهم والذود عن حوضهم منتظرين النجدة من أميّة فنهضوا تحت إمرة أبى الخطار ليمزقوا سياج الحصار ففازوا بعض الفوز على جيش الصميل ولكن بعد أيام اعادوا الكرة فدارت عليهم الدائرة وقتل أبو الخطار (فى ذى الحجة سنة ١٢٧ ـ سبتمر سنة ٧٤٥).

حينئذ بقى لقب أمارة اسبانيا لثوابة واكتفى الصميل بأن يشاركه فى حكم الجزيرة واختص بالأقاليم الشرقية ولقب بوالى سرقسطة فأساء التصرف وظلما الأهلين ومات ثوابة فى الشهر الأخير من سنة ١٢٨) فاضطر رؤساء المسلمين إلى أن اجتمعوا فى قرطبة وتشاوروا فيمن يخلفه فأجمعوا أمرهم على أن يقيموا واليا

(١) كان جد الصميل شمر من أشراف الكوفة وهو أحد قتلة الحسين ـ دخل الصميل الاندلس حين دخل كلثوم بن عياض المغرب غازيا وساد بها وكان شاعرا كثير السكر أميا لا يكتب ومع ذلك انتهت إليه رياسة العرب بالاندلس وكان أميرها يوسف الفهرى كالمغلوب معه.

يكون له السلطان العام على جميع الامراء فاختاروا لهذا المنصب الخطير رجلا شهما فطنا عالى القدر.

لم يدخل فى ثورات الاحزاب الأخيرة وهو يوسف بن عبد الرحمن الفهرى[١] أمير سبتمانيا (ربيع الثانى سنة ١٢٩ ـ بين ١٩ ديسمبر سنة ٧٤٦ و ١٦ يناير سنة ٧٤٧) وهذا الانتخاب قبلته الأمة بفرح عظيم أكثر من فرحها بموت ثوابة.

زار هذا الأمير أقاليم اسبانيا كلها وأزال المظالم واصلح الطرق والقناطر وبنى جوامع عديدة واحصى امم اسبانيا فى الدفاتر وقسم البلاد إلى خمسة أقاليم.

الأول: أقليم الأندلس ويسقيه النهر الكبير ونهر يانه وقاعدته قرطبة ومن مدنه اشبيلية وقرمونه واستجة وطالقة وشدونه وأركش ARCOS ولبلة ومالقة والبيرة وجيَّان.

الثانى: إقليم طليطلة ومن مدنه الشهيرة طليلطة وباجة ووادى آش ومرسية ومولة MOULA ولورقة وأريولة والش ELCHE[٢] وشاطبة ودانية ولقنت وقرطاجنة وبلنسية ووادى الحجارة.

والثالث: إقليم ماردة وكان يتركب من إقليم لوزيتانيا (المعروفة الآن بالبرتغال) وإقليم جليقية GALICE ومن مدنه ماردة واشبونة (ويقال لها أيضا لشبونه) وبرتقال ولك LEK (ويقال لها أيضا لوغو LUGO) واسترقة ASTARGA وبطليوس والبورة.

والرابع: اقليم سرقسطة وهو قسم طركونة ويشتمل على المدن الشرقية من قطالونية الجديدة CATALOGNE وهى سرقسطة وطركونة وچيرونده (ويقال لها

(١) جده العالى عقبة بن نافع فاتح أفريقية وبانى مدينة القيروان ـ وكان عمر يوسف وقتئذ ٥٧ سنة.

(٢) فى دائرة المعارف أنها يقال لها أيضا آليش وفى تاريخ رومى أن العرب تسميها ELDJEH الجة.

أيضـا چيرونـه GIRONNE) وبرشلـونـه ولارده وطـرطـوشه ووشـقة وتـطـيله TUDELA وپنپلونة وبَر بشتَر ودياقة DIAKA ويقال لها أيضا چاقه JACCA.

والخامس: إقليم سبتمانيا وهو فى الجنوب الشرقى من بلاد الغال بعـد جبال البرت ومدنه الشـهيرة أربونه وقرقـشونه وبطيراس BATIERAS وأغـاده AGADA ومـغلونه MAGUELONNE ونيـموسـة NEMOUSA ولوطبـه LOTUBA وكـانت سلطة العرب فى هذا الإقليم الأخير تمتد إلى نهر الرون.

فى عهـد ما كان يوسف الفهـرى يسوس اسبانيـا بالحكمة كان بنو العـباس فى الشرق ينزعون روح الخـلافة من بنى أميّة فى دمشق سنة ٧٥٠ للميـلاد فسمع دويّ الشقاق بين العبـاسيين والامويين فى أسبانيا وكانت الحروب الـداخلية فيها بددت شمل العرب وأضـعفت قواهم وكاد عز الإسلام يتـقلص ظله فى هذه الديار حتى نزع الإمـارة من يوسف الفهـرى عـبد الرحـمن الداخل وجلس على كـرسىّ ملك أسبانيا سنة ٧٥٦ للميلاد.

وبهـذا انقرضت إمـارة الأمراء ومـدتهـا من دخول طارق إلى انقـراض حكم يوسف نحـو ٤٥ سنة ميـلادية ومـا كانت اسـبانيـا فى عـهدهم إلا ولاية تتـبع والى أفريقـية ومع هذا كان امراؤهـا المقامون من قـبل الجند يتصرفـون فى ادارة البلاد تصرف المستقلين.